مخطوط «العلم الطبيعي» وميزاته اللغوية

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

إن بين الأمور التي تسترعي انتباه المنقّب في مخطوطات العصور الغابرة اللغة التي استخدمها المؤلّف للتعبير عن أفكاره وللتوصل إلى إبراز ما حوته طيّات العقل من ثروة فلسفيّة او ادبيّة يضعها في خدمة التاريخ. ولقد أردنا : إحياء للذكرى المئوية الثانية لموت العالم الكبير المطران يوسف سمعان السمعاني الذي اغنى المكتبة الفاتيكانية بمخطوطات الشرق واعطى مناطق العلوم العقلية، الفلسفية منها واللاهوتية والادبيّة والتاريخية المؤلفات الغزيرة : ان ننشر هذا الاثر النفيس الذي نحن بصدده والذي اضطر المؤلف إلى أن يقضي ثمانية وخمسين يوماً من الجهد والتنقيش فضمّنه : كما ستراه في المقال التالي : افكاراً عديدة ونظرة الى العلم الطبيعي : فيها التسلسل المنطقي وروعة اليقين : وان لم تكن مبتكرة نسبة لما تطورت اليه الفلسفة في ايامنا الراهنة . انّما يهمّنا من نشر هذا المخطوط ان تتحقق أمرين : الأول : مجمل الافكار في العلم الطبيعي في الجيل الثامن عشر . وثانياً : كيفية التعبير عنها في اللغة العربيّة . فنقتصر في مقالنا هذا على درس اللغة وميزاتها وصورة تركيبها .

اعتمدنا في نشر المخطوط هذا على أربع نسخ : وجدنا الاولى منها في خزانة البطريركية المارونية وطالعنا الثانية في مكتبتنا الشرقية . ورافقنا الحظّ يوم سافرنا برفقة غبطة البطريرك الماروني ؛ كمستشاره اللاهوتي الخاص ؛ إلى رومة : خريف سنة ١٩٦٧ ، لحضور مجمع الاساقفة ، فاطّلعنا في مكتبة الرهبنة الحلبيّة اللبنانيّة الكريمة على مخطوط يُقال في آخره انه من خط المؤلف . فصوّرناه وكان لنا خير الدليل في مقابلة القراءات المختلفة وفي تأكيد ما سنقوله عن ميزات اللغة العربية في الجيل الثامن عشر .

وكان المخطوط الرابع الذي طالعناه بين مخطوطات دير الشرفة في لبنان . واني لأشكر لآباء دير الرهبان الحلبيين ولآباء دير الشرفة الكرام . كما اشكر خوري ابان مقابلة المخطوطات من لطف وحسن ضيافة .

ب : مخطوط البطريركية المارونية العدد ٧٩

كُتب على ورق عادي بخط نسخي واضح وبحبر أحمر وأسود . مجلّد بجلد اصفر مزركش وهو في حالة حسنة . صفحاته غير مرقّمة . أتى العث على بعض ورقاته . طوله ٢١٣ م ؛ عرضه ١٥٢ م ؛ المساحة المكتوبة ١٥٢ × ١٠٢ م . في كل صفحة ١٩ سطرًا . نسخ في ٢٠ اذار سنة ١٨٣٩ . وُضع في أوله ثبتُ المراد وبدأ المؤلف المقدمة بعد ذلك كما يلي : « العلم الطبيعي هو ما يتبصر بذوات الاشيا الطبيعية ولواحقها وموضوعه الخاص هي الاجسام الموجودة بما هي واقعة في التغيير . وبما هي موصوفة بانحا الحركات والسكونات ... » لم يُذكر في اخره إسم الناسخ انما يطلعنا على ان النسخة قوبلت على الاصل كما يقول : « صح قوبل حسب الامكان في ٣ ك اول ١٨٤٤ » . وقد زيد بيد غريبة ان هذا المخطوط « من كتب دير قنوبين الكرسي البطريركي » .

ش : مخطوط المكتبة الشرقية عدد ١٣٥٧[1]

استعمل الناسخ لنسخ هذا المخطوط الورق الصقيل . وكتبه بخط نسخي واضح رفيع ومتقن وبحبر احمر واسود . المخطوط مجلّد بجلد أحمر مزركش . طوله ١٩٠ م ؛ عرضه ١٤٠ م ؛ المساحة المكتوبة ١٤٣ × ١٠٥ م . في كل صفحة يتراوح عدد الأسطر بين ١٩ و ٢١ سطرًا . وضع الناسخ بعد البسملة التي يبدأ بها المخطوط وقبل فهرست الكتاب ما يلي « كتاب العلم الطبيعي تاليف السيد الكلي الشرف والاحترام المونسنيور السمعاني ابن شمعون الحصروني الماروني تلميذ المدارنة بروميه » . وفي اخر المخطوط يصرّح الناسخ انه قابل المخطوط بالاصل ويأتينا بشعر نجد مثله في كثير من المخطوطات .

حتى كما يفرح النوتي مبتهجاً   لما سفينته للمينـا تقربُ
هكذا النسّخ الافراح تشملهم   عند النهاية باخر اسطر كتبوا

(١ Cf. P. L. Cheikho, s.j., *Catalogue raisonné des manuscrits de la Bibliothèque Orientale, IV*. Beyrouth, p. 117

ويعطينا الناسخ اسمه ووقت النسخ : « قد تم نسخ هذا الكتاب بعون الملك الوهاب على يد كاتبه الحقير انطون بن سعد غياض من قرية الشبانية الماروني الذي لم يستحق ان يذكر اسمه في الكتب لاجل وصمة ذنبه وكان الفروغ منه في ثلثة وعشرون يوماً خلت من شهر تموز سنة ١٨٥٤ مسيحية » .

وزاد بالسريانية ما ترجمته :

« كما انتقلت من هذا العالم الشرير والثرثار
هكذا تزول بسرعة ايها الكاتب
لا تحبه ولا تصنع شهواته النتاكة
لانه بعد قليل تخسر كل ما جمعته انت بذاتك

وان لم تصدق كلامي هذا انظر يا اخانا ان الكتاب بقي وانا ذهبت واسمي هو انطون . انتهى ولله المجد الذي لا ينتهي الى ابد الابدين . امين »

ح : مخطوط دير الرهبان الحلبيين اللبنانيين في روما

كُتب بالقلم الكرشوني على عامودين ، بخطّ واضح . بعض صفحاته غير واضحة . ومما يدلّ على ميزة هذا المخطوط الأصيلة ان الناسخ قد كتب وشطب وبدّل وغيّر وقدّم وأخّر بعض المقاطع ، ما يجعلنا نعتقد انه المؤلف نفسه الذي استعمل هذه الطريقة بالذات وهو يعرض افكاره ويحللها في سياق ومنطق استباح لنفسه ان يزيد او ينقص اذ الفكرة لم تكن دائماً واضحة تمام الوضوح .

طوله ٢٩٠ م وعرضه ٢١٠ م . كُتب في اعلى صفحته الأولى :

« هذا الكتاب وقف موبد لدير مار بطرس ومرشلين قد اوقفه مصنفه في ١١ حزيران سنة ١٧١٢ مسيحية في رياسة سيدنا البابا الاعظم مار قليمس الحادي عشر أدامه الله امين » .

ولقد ترجم هذا النصّ الى اللاتينية : Ex dono auctoris pro monachis maronitis Congr is (Congregationis) Montis Libani. ولم يكتف أصحاب هذا المخطوط بتأكيد الملكية بهذه الصورة فزادوا ختم الدير المطبوع Ospizio Collegio Siro Maronita Roma .

جاء في آخر المخطوط ما يلي : « كملناه بعون الله في ثمانية وخمسين يوم متفرقة وكان النجاز منه سنة ١٧١٢ [١] في اليوم الرابع والعشرين من حزيران

١) في « جدول مخطوطات دير روما » كان المرحوم الاب بولس سعد الحلبي اللبناني كتب في الأصول التاريخية ، المجلد الثاني ، الصفحة ١٨٣ ، ١٧٢٧ ، والصحيح ١٧١٢ .

عيد الجليل في القديسين مار يوحنا المعمدان صلاته تحفظنا امين».

وفيا بعد يزيدنا المخطوط علماً إذ يقول: «وقف مؤبد برسم اخوية الرهبان اللبنانيين في دير مار بطرس ومرشلين وقد اوقفه الاب الاكرم والفنان المعظم الخوري يوسف السمعاني. تقبل الله منه والمذكور قد كان النفه لذاته صح صح صح». ونجد تحت هذا النص المكتوب بالحرف السرياني بضع كلمات بالحرف العربي تنبينا ان هذا المخطوط قد خطته يد المؤلف بالذات «هو بخط المؤلف ذاته».

د: مخطوط دير الشرفة

نُعطي فيا يلي ما قاله المرحوم الخوري اسحق ارملة في تصوير المخطوط[1]: «نسخة جميلة الخط طريفة كتبها بحروف دقيقة انيقة اغناطيوس الخازن الراهب اللبناني تلميذ مدرسة عين ورقة في نيسان ١٨٤٥. طولها ٢١ س في عرض ١٥ تشتمل على ٢٤٤ صفحة. جاء في المقدمة: «كتاب العلم الطبيعي أي الفلسفة. [قد] النفه السيد مار يوسف الشمعوني السمعاني من مطارنة جمعية سيدنا البابا». وهو المونسنيور يوسف سمعان السمعاني (+ ١٧٦٨) العلامة الشهير صاحب التآليف الجمة واخصها المعروفة بعنوان «المكتبة الشرقية». وهذا المخطوط اشتراه الخوري مخائيل أزرق رئيس دير الشرفة بمبلغ مائة وخمسين غرشاً في ٣٠ آب سنة ١٨٥٢ م».

لقد دمج المرحوم الخوري أرملة في هذا التحليل ما وجده في مقدمة المخطوط وما كتب على اول صفحة من صفحاته: من اسم المؤلف واسم المالك حيث قال «قد دخل هذا الكتاب في ملك الخوري ميخائيل أزرق خادم مدرسة سيدة النجاة دير الشرفة وقد اشتراه من ماله لنفسه بمبلغ قدره عن ذلك سبعة وخمسون غرش وذلك في ٣٠ آب سنة ١٨٥٢ مسيحية».

ه

طالعنا هذا المخطوط ولم نجد ان فيه قراءات ذات بال تختلف عن المخطوط الذي أخذناه اساساً لنشرتنا هذه. فلم نتوقف عنده طويلاً انما قلّبنا صفحاته وقابلنا بعضها وبعض الفصول بفصول مخطوطنا كما يرى المطالع ذلك.

---

١) الخورفسقفوس اسحق ارملة السرياني: الطرفة في مخطوطات دير الشرفة – جونية – مطبعة الآباء المرسلين اللبنانيين ١٩٣٦ صفحة ٤٣١، رقم ٣/١٠.

في تحقيق هذا المؤلّف قد اتّخذنا نسخة ب أساساً للمقابلة. بين ب و ح شبه كبير ولعلّها نُقلت عن نسخة الرهبان الحلبيّين الأقدم عهداً. أخذناها اساساً للاسباب التالية :

١) كتبها الناسخ بحرف واضح لا يشوبه التأويل والتفسير.

٢) لا نرى فيها ما نراه في ح : صفحات غير مقروءة. شطب بعض العواميد ؛ نقل بعض المقاطع من فصل الى آخر.

٣) ينقص ح بعض الصفحات.

٤) وضع ش الحواشي في النص وغيّر لغة المؤلف.

*

في التحليل[١] الذي اعطاه المرحوم الاب لويس شيخو للمخطوط ش نرى انه يعزوه لأحد السماعنة الذي مات اسقفاً على طرابلس سنة ١٦٩٥[٢]. انّما هذا الكلام لا ينطبق على الحقيقة للاسباب التالية :

١) في ح وفي اعلى الصفحة الأولى بالذات يقول الناسخ (ونعتقد انه هو المؤلف عينه) ان المؤلف كتب مؤلّفه هذا واوقفه لدير مار بطرس ومرشلّين في ١١ حزيران ١٧١٢ في رئاسة البابا قليموس الحادي عشر.

٢) عاش البابا قليموس من سنة ١٦٤٩ الى سنة ١٧٢١ وتبوأ السدة البطرسية سنة ١٧٠٠.

٣) فكيف يستطيع السمعاني الذي يتكلّم عليه شيخو والذي مات سنة ١٦٩٥ أن يكون قد أهدى كتاباً في رياسة قليموس الحادي عشر ؟

٤) فيكون اذاً مصنّف المخطوط الذي نحن بصدده السمعاني الكبير الذي مات اسقفاً على مدينة صور سنة ١٧٦٨.

لقد ذكر المونسنيور جوزف نصرالله في ثبت مخطوطات لبنان[٣] نسخة من مخطوطنا « كتاب العلم الطبيعي » وقد عزاه ليوسف شمعون السمعاني الذي مات مطراناً على طرابلس († ١٦٩٥) وقد أخذ ذلك عن الاب شيخو كما يقول في حاشية الصفحة المذكورة. وكان يجدر به ان يطّلع

١) P. L. Cheikho, s. j., *Catalogue raisonné des manuscrits de la Bibliothèque Orientale*. Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1925, n° 357.

٢) يوسف بن شمعون السمعاني الحصروني.

٣) *Catalogue des manuscrits du Liban, II*, Imprimerie Saint Paul, Harissa, 1963, p. 145, n° 52.

على ما كتبه سنة ١٩٣٦ الخوري اسحق ارملة وكما نوّه عنه الاب بولس مسعد سنة ١٩٥٦ في « الاصول التاريخية » ص ١٨٣ عدد ٢٦٠ . فكان بذلك تحاشي الشطط والامور واضحة لمن يريد ان يطّلع.

ويؤسفنا ان نقول اننا بعد التدقيق والبحث وجدنا مخطوطاً بين مخطوطات مار عبدا هرهريا وعنوانه كتاب العلم الطبيعي ولكنه ليس للسمعاني ولكن لبطرس التولاني او التولاوي الماروني : تلميذ مدرسة رومية والذي كان يلقب بايقونوموس الملة المارونية وواعظ مدينة حلب . والعدد ٥٥ الذي يعطيه اياه المونسنيور نصرالله لا يوافق مخطوط التولاوي فالعدد ٥٥ هو مجموعة مواعظ ليس الاّ .

٥

في ترقّب استعمال قواعد اللغة الطريق الأمين لإبداء الرأي في تطويرها وفي القاء النظرة الشاملة ، يوماً ، على حياة لغة في تقلّب العصور . لقد عنينا في الماضي — اذ قد نشرنا درساً مقتضباً لمخطوطات عربيّة من الجيل الثالث عشر وترجمات نصوص من الجيل الخامس[1] — ويظلّ انتباهنا اليوم متّجهاً إلى حيوية اللغة تشقّ طريقها إلى الإستقرار من بين تأثير السريانيّة قلباً وقالباً وإلى التخلّص من لغة محكيّة تطغى باغلاطها على ادباء ومفكرين كانت لغة اختصاصهم او اللاتينية ، او السريانية . واننا نجد في مخطوطنا الحاضر بعض تلك الاغلاط ، او فلنقل طريقة استعمال بعض القواعد نستخلصها عبرةً لمن يريد :

١ — أتى مخطوطنا على استعمال الدال بدل الذال والضاد بدل الظاء والتاء بدل الدال مثلاً المضلّة = المظلّة ، ازتياد = ازدياد ، والواو بدل الالف : الحيوة = الحياة : يتولف = يتألف . ولم يبق على قاعدة في استعمال الألف الطويلة أو الألف القصيرة فنجد فيه مرّات المبدا ومرّات المبدى ، أو في تحريك الكلمة بالهمزة أو ابدال هذه بالألف القصيرة : البدء او البدى . ولطالما بدّل الهمزة بما يقابلها ياء او واواً أو أسقطها بدون بديل : يشا ، جز (جزء) ، الاتبا ، الهوا ، اجزا ، ما (ماء) ، يشاه (يشأه) ، سيل (سئل) ، اقتضاها (اقتضاءها) ، التناها (التناؤها) ، دايماً (دائماً) . الخ .

٢ — نجد في المخطوط بعض الكلمات التي تنمّ عن تأثير اللغة المحكيّة : ينوجد بدل يوجد ، فضيته (فأضته) ، الخ .

[1] cf. Mélanges de l'Université Saint-Joseph, 1950. *Les traductions arabes de Marc l'Ermite*, p. 219 sq.

٣ ــ قاعدة المبتدأ والخبر ليست دائماً القاعدة المألوفة اذ ينصب الخبر : فهو طبيعياً : او يزيد ياء على الخبر : جواب ثاني ، خاوي .

٤) لم يستعمل المؤلف الفاء في جواب امّا : امّا النفس الناطقة ﻫا (فلها) : واما الشمس كأنها (فكأنها) : اما فعل الحرارة بعد غياب الشمس يدل (فيدلّ) . اما تقريب القوة يوخذ (فيؤخذ) . اما بعد لنا (فلنا).الخ.

٥) لم يحترم المؤلف دائماً ١ ــ قاعدة جواب كان المنصوب : يجب ان يكون متضادد (متضادداً) . اذا كان الفعل صادر (صادراً) : يمتنع ان يكون الشي نظري او عملي (نظرياً او عملياً) .

ب ــ ولم يحترم قاعدة اسم كان المرفوع : كان كلاً (كلّ): اذا كان حصتين (حصّتان) : اذا كان الفاعلين متساويين (الفاعلان متساوين) : اذا كان جسمين (جسمان) : الخ .

ج ــ ولم يحترم قاعدة خبر كان المنصوب في «كونه» او «لكونه»: لكونه بري (بريئاً) : لكانت الطبيعة شي واحد (شيئاً واحداً) : لكونه كامل (كاملاً) ، لكون الخط متصل (متصلاً): لكون الزمان متواتر متواتراً). الخ.

د ــ ولا قاعدة خبر اخوات كان : وليس هو واحد (واحداً) : ليس هو مباح (مباحاً) ، ليس وجودي (وجودياً) : ليس تعقله عملي (عملياً) : ليس هو قادر (قادراً) : الخ . ولقد أدغم المؤلف الخبر بليس : لسته : ليسه .

٦) اما فيما يتعلق بان واسمها وخبرها فلا قاعدة مستقرة إذ نجد عند المؤلف ما يلي :

١ ــ اسم ان : لان كثيرون (كثيرين) ، ان كلّ (كلاً) : ان شيء (شيئاً) ، ان زيد(زيداً) ، لان له طرفان اخران (طرفين أخرين) : لان هذان الفاعلان (هذين الفاعلين) : ان الامران (الامرين) : الخ .

ب ــ جواب ان : لانهما طرفي (طرفا) ، فانهما شخصين (شخصان) : ان الاول موجوداً : الخ.

٧) يرفع المؤلف المفعول به : ان يخلق عالم ، ان يحفظ جسد : تصير نار ، يصير رماد ، فيصور خطوط : يسمّى قنوم ، لا يقبل تغيير : ان يحوى جزء ، يقدر الله ان يحوى انسان : يقدر ان يخلق اناس : فعل الإرادة يدعى ارادى: قد تدعى القوة فعل اول بعيد: تدعى عقل (عقلاً) . الخ .

٨) ويقوم المفعول به مرات بدل الفاعل : ان يوجد انسانين ، ان

يوضّع جسمين ؛ اجزايه بدل اجزاؤه (فتسخن اجزايه ؛ اما ان تكون اجزايه) ؛ يحصل لم عذاباً (عذاب) ؛ اذا اجتمع جمراً عديداً (جمر عديد).

٩) أمّا حرف لم فلا يجزم دائماً : ان لم تحتاج ؛ ان لم يرضى ؛ لم تبقى ؛ لم تكتفى ؛ لم يدعى ؛ لم ينتدى ؛ لم تنال ؛ لم تستطيع ؛ لم يتبقى الخ.

١٠) والأمر لا علامة له فارقة : لا تعطى (تعطِ).

١١) استعمل المؤلف ان وكأنها جازمة : انه يمكن ان يكن ؛ يلزم ان يكن ؛ فيعدم ان يكن ؛ وهذا في المخطوط كلّه. ولم نصلحها دائماً في ب.

١٢) أمّا قاعدة المجرور فتظلّ في حيرة : كالنفس والجسد المتحدان (المتحدين) ؛ متعلّق باحداهما ؛ يحتاج إلى إحداهما (إحديهما) ؛ الخ.

١٣) لا يطابق الفعل الاسم الذي يتبعه فنجده مثنّى مع فاعل منصوب : حيث يوجدا عرضى الخبز والخمر.

١٤) بصورة عامة جزم المؤلف الفعل بعد ان في العبارة : يمكن ان يكن.

٥

إن دلّت هذه الأغلاط على شيء فعلى حالة اللّغة العربيّة المسيحيّة في الجيل الثامن عشر. كان المؤلّف يفتّش عن قالب يسكب فيه أفكاره وتحاليل المفاهيم الفلسفية وكان يرغب في المساهمة في إنماء تيّار كان غيره من الكتّاب والأدباء والمؤرّخين قد دخلوا فيه وغذّوه من ترجمات بعض لاهوتيي الغرب[١] أو من محاولات[٢] تُثبت أن اللّغة كانت في سيرها إلى الاستقرار تتعثّر خطاها بين تعلّق بالماضي ووثبة الى المستقبل. وكان بعض أعلامها يدرسون قواعدها في تآليف لا يزال الطلاب يتداولونها إلى يومنا الراهن ككتب فرحات وغيره ؛ نذكر منها « بحث المطالب ».

وفي الاطّلاع المتواتر على المخطوطات القديمة وفي درس لغتها وميزاتها اللغويّة كلّها نتوصّل يوماً إلى وضع معجم شامل لتطوير قواعد الصرف والنحو في الأدب المسيحي منذ أن كانت الترجمات الأولى إلى يومنا هذا ؛ معجم لا يسرد فقط النقص أو سوء استعمال القواعد بل يجدّ في ايضاح التفاعل بين لغات سادت أجيالاً ولغة كانت تنمو يوماً بعد يوم ضعيفة، هزيلة إلى أن ثبّتت أقدامها في استقلال ذاتي وكمال متزايد.

١) cf. Ign. A. Khalifé, s. j., *Catalogue des Manuscrits de la Bibliothèque Orientale 1951-1952*, nn° 1385 sq. Cf. aussi nn° 793 sq.

٢) ib. nn° 935 sq.